... فلم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتمسًا مأمنه وراء هضبة من هذه الهضاب، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الريف ويحملون إلى أهل الريف ثمرات الواحات. لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكانت نفسه هادئة وكان ضميره مطمئنًّا، وكان قد نسي إثمه نسيانًا، وكان قد انجلى عنه هذا الذهول الذي غشيه بعد أن سوَّى الأرض على ضحيته.

ولم تتمثل له هذه الصور المروعة التي تتمثل لي، ولم تنهكه هذه الحمى التي أنهكتني، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يبيع ويشتري، ويتحدث مع رفاقه إذا لهوا، كأنه لم يأت شيئًا ولم يقترف إثمًا ولم يسفك دم ابنة أخته بيده ...

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب، وسيعود من الواحات فيمن يعود، يحمل وجهه البغيض ونفسه المجرمة وضميره الآثم، ويحمل مع هذا كله تجارة قد ترتضيه وقد ترتضي أهل هذه الدار، وسيلقونه مغتبطين بلقائه وسيلقاهم سعيدًا بالعودة إليهم لا يحس ألمًا ولا ندمًا، وسيرتفع صياح الفرح لمقدمه في هذه الدار، وسيرتفع صياح الفرح في القرية كلها لمقدم العائدين معه من أهل القرية، وسيقضي الناس هنا أيامًا كلها أعياد يملؤها السرور والحبور. أما أنت أيتها الأخت التعسة البائسة فلن يذكرك في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التي لا تستطيع أن تذكرك إلا سرًّا بينها وبين نفسها، وإلا هذه الفتاة التي لا تكاد تفكر فيك حتى يتراءى لها الينبوع الأحمر والظلال المطيفة به في ذلك الفضاء العريض فتشفق من الجنون ...!

ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود ... حرام عليَّ أن أراه، وحرام علي أن أشهد ما سيثير مقدمه من الفرح والابتهاج، إني لعاجزة عن لقائه، وإني لخليقة إن لقيته أن أفضح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرًّا. أليست هنادي قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء؟!

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارتفع الضحى، وافتقد أهل الدار آمنة فلم يجدوها، ولو أنهم افتقدوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصوِّبةً نحو الشرق ...